

الحياة العظيمة في لبنان

قبل مئة سنة

عاضرة القاها في نادي الشبية الكاثوليكية

فؤاد افرايم البستاني

لكل أمة حياتان :

حياة خارجية مادية ، تُثيرها المطاعم والاهواء ، ويقودها حب الفتح والاستيلاء . الى المجازر والمبارك ، فيهر ابصارها لمعان الأسننة ويريق السيوف ، وتُحجيم فوقها غنائم البارود وعصائب الكوماسر ، ويحجّل اصداء جلستها الى اطراف الأفق قرع الطبول وقصف المدافع . ثم تعود ، بعد ان ملأت القضاء ضجيجاً ، نشوى بحجرة الانتصار ، فتبني صروح عظمتها شاهقة ، توطنها على احقاف الجاهم ، وتشيدها بدماء الأوردة .

وحياة ثانية ، داخلية روحية ، تُحجبا الرغبة في تهذيب النفس ، ويفتديا الدرس واجهاد الفكر ؛ فتعمل منفردة ساكنة ، تحفظها الطائنة والسلام ، وتحميها الهية والوقار . تبسط ايديا المحررة على خفايا الأدممة فتزع حجبها ، وتعد اصابعها المرنّة اللطيفة الى حنايا الضلوع فتكتشف كنوزها . ثم تعود ، ولم يشعر بها احد ، فتبني أكرام تواضعها ضئيلة حقيرة ، توطنها على متوجات العقول ، وتشيدها بمواقف القلوب .

وبعد حين يشرّ ارباب الحياة الصخابة بوجود الحياة الهادئة . فيبزا بها البعض ، ويحتقرون أكرامها ، ويتدفعون حتى عن تقويضها . ويلهوها البعض الآخر ، فيستخدم ابناءها في اساليب سروره وطربه ، يذيون ادمتهم في سبيل تفكيكه ، وعن عليهم بان يحجل أكرامهم في ظلّ صرحه الشامخ .

ولكن ما هو أن تهب مواصف الزمان ، وتثور انصاع الدمر ، فتصدم تلك

القصور المتسردة ، وتدفع ريجها السوم صافرةً بين الجماجم ، حتى ترتل تلك القباب ، وتقرض تلك الأركان . والأكواخ باقية في تراضها مطشنة في سكونها . ثم تمر القرون ، وإذا بهرميوس يدوخ من البلاد ما لم يحلم به الإسكندر الكبير ، وإذا بثرجيل ينشر نفوذه على ولايات لم ينشر عليها الفرس الروماني ، وإذا بالمتني يفتح ثغوراً لم يصل إليها سيف الدولة ، وإذا بابيات كورنيل تدوي في آفاتر لم تسمع قصف مدافع نابليون ، وإذا بشكيب يحتل من المناطق ما لم يبلغ إليه اسطول ملكة البحار .

وإذا بالتاريخ ، ذاك الحاكم العادل ، يرذد بيروذته المهودة :

مضى ذكرُ الملوك بكل عصر وذكرُ السوقة العلماء باتر

هذه الحياة العقلية ، الهادئة الساكنة ، هي ما نودّ درسه في لبنان قبل

مئة سنة ، أي في الثلث الأول من القرن التاسع عشر .

في عهد كان اللبناني لا يهتم بسوى صقل بيطقانه ، وتنظيف بندقيته ، وتنضيد طبنجاته ، منتظراً دعوة أميره ، كي يسير إلى حيث لا يعلم ، فيحارب من لا يعرف . في ذلك العهد المضطرب ، الذي ملأه الأمير بشير جبلة وضوضاء ، هل كان من وجود للحياة العقلية في لبنان ؟

إذا التيم نظرة على قم جبالنا ، من الشمال إلى الجنوب ، ومن البحر إلى البقاع ، ترونها مزدانةً ببنائيات بسيطة الظاهر تعلوها قبب الأجراس مرتفعة ، تبدو في النهار معالم لأبصار المسافرين فتدعوهم إلى الاطمئنان والامل بالراحة ، وتقرع في المساء والصباح فتنبه السكان إلى رفع الدعا . نحو السكان الأعلى .

في تلك البنائيات التي شيدت بعزى الرهبان حيناً وبدمانهم أحياناً ، حفظ ، قرناً قرناً ، مصباح الحياة العقلية . حُبّت عليه عواصف المسجية ، واكتنفت ضباب الجبل ، فارتجفت طويلاً ، ولكنه لم ينطفئ . هو نودّ ضئيل لا يذكر إذا قسناه بانوار علومنا اليوم ، ولكنه كافٍ ليستانس به موزخ الآداب ، ويؤمل انه سوف يسطع ، إذا وجد مجالاً للطرح . وهكذا كان ! فان تلك الأديرة لم تحلّ عهداً من حياة العلم ، ونشرة المعارف :

جبرائيل القلاعي في اواخر القرن الخامس عشر .

الصهيوني ، والحصري ، والرزي في اواخر القرن السادس عشر .
الحاقلاني ، والباي ، والدويهي الكبير في القرن السابع عشر .
والساعة ، وفرحات في القرن الثامن عشر .

حملوا علوم الشرق الى بلاد الغرب ، وعادوا ، بانفسهم ، او بتلامذتهم ،
او بآثارهم ، الى وطنهم ؛ فهَدُوا السبيل لنفحة الغرب الباعثة فينا روح النهضة
في اوائل القرن الماضي .

هذا اهم ما يُذكر ، عند الكلام عن سُبُاق نهضتنا الحالية ؛ وهذا ما دفع
خيرائه خيرائه في كتابه « *La Syrie* » الى الاقرار عالياً بفضل الاكليروس
الماروني ، فقال ما تعريبه :

« نحن اليوم في طور انتقال تسود فيه الفوضى . ولكن المستقبل كفيلاً بان
يستخلص الأسباب من النتائج . عند ذلك تعرف سورية العصرية كل ما هي
مدينةً به لبنان ، ويعرف لبنان كل ما هو مدينٌ به للموارنة ، ويعرف
الموارنة كل ما هم مدينون به لاكليروسهم . »^١

* * *

اما في اول القرن التاسع عشر ، فتبدو الحياة العقلية في ثلاثة مظاهر :

المدارس ، والمطابع ، ومآفل الادبا . .
وها نحن نجول في لبنان ، اذا شئتم ، في العقد الثالث من القرن الماضي ،
فتسَلِّقُ قُصُ ، وتزور مدارس ، وتفتش مطابعه ، وتتعرف الى مؤلفيه ؛ ثم
تنزل ضيوفاً كراماً على امير لبنان في بيت الدين ، فتشهد حفلات من تشده من
الشعراء والكتاب . ونعود الى مقرنا ، بعد ان نسمع شيئاً من اناشيد الشعر
العامي . وقتنا اقه في الذهاب والاياب :

اول ما يلفت نظرنا من مآفل العلم مدرسة عين ورقية الشهيرة ، التي
انشأها البطريرك يوسف اسطفان على عهد استقيته . وظلّت ديراً بسيطاً يُقيم
فيه بعض الراهبات ، حتى انتبه البطريرك يوسف التيان ، احد تلامذة مدرسة
الموارنة في رومية ، لحاجة البلاد الى معهد علمي كبير ، فأخرج الراهبات ،

وحول الدير ، سنة ١٧٨٩ ، الى مدرسة كبيرة على مثال مدرسة رومية . وما نحن زاما في زيارتنا ، أهلةً بالتلامذة ، مرتبة الصفوف ، تدرّس فيها اللغات السريانية ، والايطالية ، واللاتينية ، والعربية بعلومها المختلفة من صرف ونحو وبيان وعروض ، مع الفصاحة والمنطق والفلسفة واللاهوت الادبي والنظري ، والحق القانوني ، والشريعة المدنية . وزى بين هؤلاء التلامذة المتحدّين كثيراً من سوف يُصبحون ارباباً للغة بعد قليل ، فيحلون لواء النهضة عالياً ، ويملاؤون المكاتب بتأليفهم النفيسة ، كأحمد فارس الشدياق ، والكونت رشيد الدحداح ، والمعلم بطرس البستاني .

وعليه يظهر فضل تلك المدرسة « التي يسوغ لنا ان نقول بحق » ، مع احد تلاميذ المعلم بطرس البستاني^(١) ، إنها ام المدارس الوطنية في هذه البلاد .
ومن عين ورقة نير الى باقي المدارس المارونية ، فنزور مدرسة كفرحبي المنشأة سنة ١٨١٢ ، ومدرسة الرومية المنشأة سنة ١٨١٨ ، ومدرسة صربا المنشأة سنة ١٨٢٨ ، وكثيراً غيرها من المدارس الأبرشية والاناطش المنتشرة في اهدن ، وحرّقا ، وبقرقاش ، وجبيل ، وجبيلتون ، ووادي شحرور ، ودير القمر ، وزحلة . ولو تأخرت زيارتنا قليلاً لأمكننا ان نزور مدرستين عامرتين هما مدرسة ريفون ، ومدرسة مار عدا هريريا ، وقد أسّستا سنة ١٨٣١ .

هذا ولم يحتكر المزارنة انشاء المدارس ، فاننا نرى للروم الكاثوليك مدرسة شهيرة انشأها في عين تراز سنة ١٨١١ ، البطريرك اغابيروس مطر ، وعايته تهذيب ابنا . طائفته بالعلوم الاكليريكية .

وكان بطريرك السريان الكاثوليك ، ميخائيل بروه ، قد وضع اساس مدرسة الشرفه وجمع بها مكتبة مهتة ، لا يزال المنقبون يكتشفون بعض نغانها حتى اليوم .

واذا زرنا دير بزمّار للأرمن الكاثوليك ، ورأينا ان لهم فيه مدرسة تُذكر ، انشأها البطريرك غريغوريوس الأول ، ترجع ونحن واقفون بأننا قد عرفنا اشهر مدارس لبنان في الثلث الاول من القرن التاسع عشر .

(١) المعلم بطرس البستاني : خطبة في آداب العرب ، (ص : ٣٦)

أما المطابع فأقدم ما عُرف منها في لبنان مطبعة قزحيا القديمة التي دخلت بلادنا في اوائل القرن السابع عشر . وُطبع فيها كتاب المزامير ، على عمودين احدهما سرياني والثاني عربي بالحرف الكرشوني ، وذلك سنة ١٦١٠ . ثم خربت تلك المطبعة ، فتضعفت حروفها ، وخذت حركتها نحو مائتي سنة . الى ان اهتم الاخ سيرافيم حوقا فاستحضر من اوربة ادوات جديدة ، وبني قبرا خاصاً في الدير المذكور ، رتب فيه جميع الآلات ، وطبع اول كتاب فيها سنة ١٨٠٨ . وقد بلغت مطبوعاتها حتى زيارتنا نحو الثمانية كتب كلها في الدينيات .

وهناك مطبعة ثانية تقدمت زمن تجديد مطبعة قزحيا ، وهي مطبعة دير يوحنا الصايغ في الشويز التي انشأها عبدالله زاهر في الثلث الاول من القرن الثامن عشر ، وحفر حروفها على مثال الحروف العربية في مطابع رومية ، وسبكها بيده ، وقد ساعده على ذلك انه كان يتعاطى في حداته فن الصياغة ، كما ذكر الرحالة الفرنسي ثولني (Volney) . واحدر اول كتاب منها سنة ١٧٣٤ ، وهو كتاب ميزان الزمان للأب نيرنبرج اليسوعي . ولم تأت السنة ١٨٢٨ ، حتى كانت مطبوعاتها قد بلغت الاربعة والعشرين كتاباً كلها في الدينيات .

وقد كان امكنا زيارة مطبعة عربية في بيروت ، وهي مطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس التي أنشئت سنة ١٧٥١ ، لو لم تكن قد أهمل امرها فظلت نحو المئة سنة لا تطبع شيئاً .

* * *

كان يلتم حول هذه الدوائر الادبية من مطابع ومدارس ، او بالقرب منها في الاديرة او في زوايا الجوامع ، فريين من راقت لهم حياة العلم والتعليم ، فخصصوا القم الاكبر من وقتهم للتبحر ، وتدوين ما يعلق بذاكرتهم من الحوادث ، والمذاكرة مع من يجتمع اليهم من الطلاب والمريدين .

وهكذا فاننا زى في لبنان بضعة عشر شخصاً من المشتغلين بالحياة العقلية تركوا لنا بعض آثار لها قيمة تُذكر ، لاسيما اذا ذكرنا ان مؤلفيها كتبوها في زمن ساد الجهل فيه على معظم الاقطار العربية .

من هؤلاء المشتغلين بالعلم مؤرخون ثقة نحن مديون لهم بما نعرفه عن

تاريخ بلادنا ، كالفقير حنايا المنير من الرهبانية الحنّاءة الشورية ، والمعلم نقولا الترك . للأول تاريخان مشهوران : أحدهما مدني اسمه « الدرّ المرصوف في حوادث الشوف » ذكر فيه ما حدث في لبنان من السنة ١٦٩٧ الى السنة ١٨٠٧ ، قنّدا مورداً سائفاً استقى منه الامير حيدر في تاريخه المعروف ، والشيخ طنّوس الشدياق في « اخبار اعيانه » . والآخر ديني ذكر فيه حوادث رهبانيته من نصف القرن الثامن عشر الى السنة ١٨٠٥ . وفي المكتبة الشرقية نسخة من التاريخين . اما نقولا الترك فولد في دير القمر سنة ١٧٦٣ ، وخدم الامير بشير ، ناظماً في مدحه ومدح اعوانه القوائد العديدة ثمّ سئير اليه . وقد اهتم بالتاريخ ليس اللباني فحسب ، بل العام ايضاً ، فترك فيه كتابين جليلين اولهما تاريخ نابوليون ، من وفاة لويس السادس عشر الى السنة ١٨٢١ ، وقد درس هذا الكتاب المشرق دينرانج (Desgranges) فطبع نصفه الاول في باريس سنة ١٨٣٩ وترجمه الى الفرنسية ، ولا يزال النصف الثاني مخطوطاً . وثانيهما تاريخ الجزائر ، منه نسخة في المكتبة الشرقية . ويمتاز نقولا الترك بمجملته السهولة الصحيحة ، القليلة التكلّف . ويرى المرحوم الاب شيخو ان لنقولا المذكور تاريخين آخرين لم يذكر اسم مؤلفهما : الاول طبع في باريس سنة ١٨٠٧ بعنوان « مجموع حوادث الحرب الواقع بين الفرنسية والنسوية في اواخر سنة ١٨٠٥ الموافقة لها سنة ١٢٢٠ لتاريخ الهجرة . » والثاني لا يزال مخطوطاً منه نسخة في مكتبة باريس العمومية اسمه « زهمة الزمان في حوادث لبنان » ينتهي بموادث سنة ١٧٩٠^١ اضيفوا الى هؤلاء بعض المشتغلين بالعلوم والآداب من الفقهاء والاساتذة الذين كانوا يجتمعون حولهم من طلابهم حلقات ، يتذاكرون فيها ويتناظرون ، فيخلقون محافل ادبية صغيرة ؛ كالشيخ محمد الحوت الفقيه البيروتي الذي ترك كتاباً اسمه « اسنى المطالب في الحديث » ، والحوري ارسانيوس الفاخوري الذي صار في ما بعد قاضياً للصارى ، وترك التأليف العديدة .

(لها بقية)